من تراب الطريق (٣٨٨) شهيد العشق الإلهى(*)

شهيد العشق الإلهى الذي أريد أن أحدثك عنه ، هو السهروردى المقتول شهاب الدين .. حكيم القرن السادس الهجري ، وشاعر الصوفية وأديبها المفوه الطائر المحلق فى رحاب الفكر والتأمل .. قتلته الكلمات كما قتلت الحلاج ، والقتلة أشباه ونظائر فى كل عصر وأوان .. هم بالأمس القريب كما كانوا بالأمس البعيد ، وهم اليوم كما كانوا فى كل ماض قديم أو غابر سحيق !

فى بلاط الملك الظاهر الأيوبي بالشام ، كما فى كل بلاط ، ذهب الحقدة ليوغروا صدر الملك على الصوفي العاشق ، ويثيروه لإهدار دمه بزعم أنه يفسد العقول ويزعزع العقائد .. يأبى الملك إلا أن يحتكم إلى ثقة وتقدير الشيخ افتخار الدين شيخ المدرسة الحلوية الذى عرف بمحبته للسهروردى وتقديره له ، فأفرغ الشيخ كل ما فى جعبته من علم وإنصاف ، حتى رد الحقدة عن بلاط الملك الظاهر مفحمين خائبين !!

فى ماخور من مواخير التآمر ، اجتمع الحقدة يدبرون كيف السبيل إلى بلوغ الغاية وتنحية السهروردى من طريقهم .. إن الملك الظاهر يحبه ويؤثره ، والشيخ افتخار الدين قواه وأيد حسن رأيه فيه ، أما

(*) المال ١٢/ ١/ ٢٠١٠

وقد خاب مسعى الدس لدى الملك الابن ، فلا عليهم إلاَّ أن ينتقلوا إلى إيغار صدر الملك الأب : صلاح الدين الأيوبي .. فهو يكره الفلسفة والفلاسفة ، ويسير أن تُحمل صوفية السهروردى على أنها ضرب من ضروب الفلسفة ، ولا بأس لزوم التأليب من تحذير صلاح الدين من أن السهروردى سوف يفسد عقيدة ابنه الملك الظاهر !!

جاء خطاب صلاح الدين آمرًا بإبعاد السهروردى ونفيه ، ولكن الملك الظاهر لا يسرع إلى تنفيذ الأمر ، يتراخى ويتمهل بحثا عن مخرج لإنقاذ الصوفي الحكيم من شر تدبير الحاقدين الذين جعلوا يلحون عليه كل يوم ، فلا يجد مناصًا بعد شهور ، من عقد مجلس للمناظرة بينهم وبين الحكيم المفترى عليه ..

كانت أشعار السهروردى فى العشق الإلهى ، هى تعلتهم للضرب فيه ، متجاهلين رموز الصوفية فى الإلماح إلى الذات العلي وأسلوبهم فى المناجاة لنور الأنوار .. جعلوا يحرفون حنينه إلى رب العزة ، وأشواقه للاتصال بالذات الإلهية ، ويصورونه على أنه بوح بمحبة معشوقة فى دنيا الناس ، وتعبير عن ألم العشق وجوى عاطفة مشبوبة !

بيد أن السهروردى لا يجزع ولا يبالى بأنباء المؤامرات التى جعلت تأتيه بما يُحاك ضده .. وكيف يجزع وهو الصوفي صاحب النزعة الإشراقية .. ولكن أقلية على رأسها الشيخ افتخار الدين جعلت ترد سهام الحقدة أمام الملك الظاهر ، وتستشهد بأبياته القاطعة بأن العشق الذى تتنادى به هو للذات الإلهية..

يا صاح : ليس على المحبِّ ملامة ... إن لاح فى أفق الوصال صباحُ
لا ذنب للعشاق إن غلب الهـوى ... كتمانَهُمْ فنما الغرامُ فباحـوا
سمحوا لأنفسهم وما بخِلوا بها ... لما دَرَوْا أن السَّماحَ ربـاحُ
ودعاهُمُ داعى الحقائق دعـوةَ ... فغدوا بها مستأنسين وراحـوا
ركبوا على سنن الوفا ودموعهم ... بحرٌ ، وحادي شوقِهِم ملاّحُ
والله ما طلبوا الوقوف ببابـه ... حتى دُعُوا وأتاهُمُ المِفتـاحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهـم ... أبدًا فكل زمانهـم أفراحُ
حضروا فغابوا عن شهود ذواتهم ... وتهتكوا لما رأوْه وصاحُـوا
فتشبهوا إنْ لم تكونوا مثلهـم ... إن التشبه بالكرام فـلاحُ

***

كان الخطاب مختلفا ، كما كانت الأهداف متباينة ، فى المناظرة التى عقدت ببلاط الملك الظاهر ، السهروردى لا يبالى بالمداهنة ، ولا يستهدف سوى بيان وتجلية منطقه وتسامى روحه المترفعة عن الدنايا والشرور ، بينما كانت هذه الدنايا والشرور هى موضوع وغاية من تجمعوا عليه .. مضت المناظرة وهو يفحمهم فيها بعلمه ومنطقه ونصاعة بيانه وحجته ، وهم يتراجعون منهزمين حتى أوشكوا على التسليم ، لولا أن أسعفهم واحد من لئامهم فقال للسهروردى : «ألم تذكر فى بعض تصانيفك أن الله قادر على أن يخلق نبيًّا ؟!» .. وفى ثقة غير وجلة ، يجيبه السهروردى : «نعم . ذكرت ذلك» .. فعاد اللئيم يقول : «أما علمت أن

هذا أمر مستحيل؟! «. سأله السهروردى : «وما وجه استحالته ؟ . فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شىء» .. سارع الحقدة المتآمرون لتلقف هذه الإجابة مقاطعين مشوشين على السهروردى ومصادرين عليه حتى لا يتم عبارته التى تفرق وتميز بين الممكن فى ذاته ، وبه تتعلق قدرة الله التى لا يحدها حد ، فأمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وبين الممكن الذى أخبر القرآن المجيد أنه لن يقع ، لأن هذه هى إرادة الله القادر ..

انتهزها المغرضون فرصة ، بعد أن صادروا عليه ، لرجمه بالكفر وكتابة وثيقة بإهدار دمه .. فلا يبالى السهروردى ، ويختار أن يموت صبرًا فى محبسه ممنوعًا عنه الطعام والشراب ، فلما استهول الملك الظاهر وجزع على الرجل من هذا الطريق الذى اختاره ، فوجئ والحاضرون بالسهروردى يقول للملك : «لا عليك .. ان ذلك أقرب إلى طبعى ، وأصلح لتعبدى وتهيّئى للقاء ربى» !

سمعه القريبون منه يتمتم لنفسه فى مناجاة .. «وا شوقاه إلى السرادق القدسي .. ووا أسفاه على العالم العقلى» ! .. وفى محبسه ، كان الحراس يتسامعون من وقت لآخر إنشاد شهيد العشق الإلهي ..

قلْ لأصحابٍ رأونـى ميّتًا ... فبكَوْنـى إذرأوْنـى حَـزَنا

لا تظنُّونـى بأنـى ميِّـتٌ ... ليس ذا الميِّتُ والله أنـا

أنا عصفورٌ وهـذا قفصى ... طِرْتُ منه فتخلَّـى رَهَنـا

وأنـا اليـومَ أناجـى مـلا ... وأرى الله عيانًـا بهنـا

فاخلعوا الأنفسَ عن أجسادِها تَرَونَّ الحق حقًّا بيِّنا
لا ترْعكمْ سكرَةُ الموتِ فما هى إلاّ كانتقالْ من هنا
من رآنى فليقوَّ نفسه إنما الدنيا على قرن الفنا
وعليكم من كلامى جملة فسلام الله مدح وثنا

*****